ابو يوسف ... رمز جيل كامل

خالد الحسن

شهيدنا أبو يوسف

كل كتابة عنه ستكون ناقصة ، لان قضيته لم تكتمل بعد .

ذلك أن أبو يوسف ، لم يكن في حياته وفي التزامه مجرد شخص اختار طريق النضال والثورة ، بل كان الى جانب ذلك نموذجا بارزا لجيل فلسطيني كامل . ومن خلال تمثيله لهذا الجيل ، ومن خلال تعبيره عنه ، اكتسب قيمته كمناضل وقائد .

في عام ١٩٤٨ شارك في القتال ضد اغتصاب فلسطين ، وخرج من مشاركته تلك ببتر في يده ، حمله علامة لا تزول تذكره بقضيته وبالثمن الذي تستحقه . وحين وقف عام ١٩٦٥ بين تلك الحفنة المجهولة من الرجال التي اعلنت انبثاق الثورة الفلسطينية وحددت لها هدف التحرير الكامل كان أبو يوسف نموذج التواصل في النضال . ولم يكن بذلك يمثل نفسه ، انما كان يمثل جيله بأكمله . هذا الجيل الذي لـــم يخذله ، فلبى الدعوة حتى أصبحت احدى أقوى حقائق التحدي في المنطقة .

قبل ذلك ، واجه أبو يوسف مثل جيله بأكمله ، التشرد والجوع والفقر . وحين حملته احدى السفن الى سوريا قادما من مخيمات غزة كان بالكاد يملك ما يقيم أوده . ومن خلال نقطة الصفر التي كان عليها انطلق يواجه مشاق الحياة ، واستطاع بجهده وكفاءته أن يبني لنفسه حياة خاصة مريحة تغري اي انسان بالركون للراحة والهدوء . ولكنه أيضا مثل جيله بأكمله ، تخلى بسرعة وبوعي كامل عن كل ما بناه أثناء تلك السنين وقرر الالتحاق بالثورة . وأبرز بقراره هذا حنين الفلسطيني للارض واصراره على النضال من اجل العودة اليها . أثبت أكثر من ذلك ، ان ما خطط لاستيعاب الفلسطيني وتذويبه في مدن العالم ومشاريعه يتهاوى بلحظة واحدة يلوح فيها بريق العمل من أجل فلسطين .

وحين دخل عالم القيادة ، ظهرت من خلال أسلوبه في العمل ميزات تراثه النضالي ، فهو لم يكن ذلك النموذج المتطرف من الرجـــال . ولم يكـــن ذاك النموذج المرن من الرجال . كان مزيجا من التطرف والمرونة ، من الصراحة المطلقة والصمت ، من الايجاز في الحديث والممارسة المستمرة . وبهذه الروحية ، وبهذا الاسلوب، كان يعالج كل مشاكل المسيرة،